مدخل إلى الجزء الثاني

درسنا في الجزء الأول من هذا البحث، وبشيءٍ من الإسهاب، عدداً من الظواهر القرآنيّة اللغويّة والبلاغيّة والفكريّة التي فاجأ القرآن بها العرب، متجاوزاً بخطابه الجديد أبعاد اللغة والفكر والخيال التي عرفوها من قبل، ووقفنا مليّاً عند كلّ ظاهرةٍ منها، محلّلين لطبيعتها، ومستكشفين لدقائقها وحقائق جِدّتها، مع محاولة استقصاء أهمّ شواهدها حيثما وردت في سور القرآن الكريم.

ونخصّص هذا الجزء الثاني، كما وعدنا، لدراسة تلك الظواهر مجتمعةً في كلّ سورة، بدءاً بفاتحة الكتاب، ثم السوَر العشرين الأخيرة من القرآن، بادئين بسورة (الناس) وعائدين بالدراسة، حسب الترتيب العكسيّ للسوَر، حتّى نختم بسورة (التين).

ومن المفيد، للدخول إلى هذا القسم التحليليّ المفصّل، أن نذكّر بأطراف تلك الظواهر المدروسة في القسم الأوّل، فنتوقّف وقفةً سريعةً خاطفةً عند أهمّها، لتكون مدخلاً تمهيديّاً لنا إلى دراسة تلك السوَر.

ولأنّ الشواهد على معظم هذه الظواهر أكثر من أن تحصَى، فضلاً عن أن تستوعبها إلمامةٌ سريعةٌ كهذه، وحتّى نُبعد بحثنا عن منزلق الانتقائيّة الذي يتعرّض له كثيرٌ من البحوث، ولأنّ دراستنا التطبيقيّة هذه ستقتصر على قصار السوَر، وقد يكون لهذه السوَر من المواصفات غير ما يكون للسور الطويلة، ولأنّ دراستنا لأيٍّ من السوَر الطويلة، أو حتّى المتوسّطة، يمكن أن تستغرق منّا، مهما اختصرنا، مجلّداتٍ عدّةً كهذا المجلّد، آثرنا أن نأخذ شريحةً قرآنيّةً متوسّطة الحجم، لنستند إليها في هذا المدخل التمهيديّ ونستمدّ منها شواهدنا، وذلك سيمنح القارئ فكرةً

عن مدى بروز هذه الظواهر في القرآن بشكلٍ عامّ، ودرجة كثافتها في كلّ سورة، مدنيّةً كانت أو مكّية، قصيرةً أو طويلة.

وقد اخترنا لهذه الغاية، وبشكلٍ محضٍ عشوائيّ، سورةً مكّيةً معتدلة الحجم من أواسط سوَر القرآن الكريم، وهي سورة (فاطر).

وسنرى أنّ معظم الظواهر المدروسة، أو أهمّها، متوافرةٌ في هذه السورة بوضوح، رغم أن استخراجنا لشواهدنا منها لن يكون استقصائيّاً، كما سنفعل فيما بعد مع السور القصيرة المدروسة، ولن نقف عند جميع الشواهد بالتوضيح والتفصيل، كما سنفعل مع تلك السوَر أيضاً، وإلاّ لاحتاج الأمر منّا إلى مجلّدٍ آخر خاصٍّ بهذه السورة كما قدّمنا.

ولا بدّ من التذكير بأنّ الإعجاز التجديديّ الذي نحاول اكتشافه في لغة القرآن الكريم يقتضي منّا ملاحقة "اللُّحمة والسَّدى" في هذه اللغة بكل تفاصيلها، من السبيكة، إلى الجملة، إلى العبارة، إلى اللفظة، إلى علاقة كلٍّ من هذه الجزئيّات بما قبلها، ثمّ بما بعدها. وقد يكون، بل غالباً ما يكون، في العبارة أو اللفظة أكثر من جانبٍ تجديديٍّ واحد، فلا يعجب القارئ إذا توقّفت معه، في دراسة (الفاتحة) مثلاً، عند آية ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، ثم عدت به إليها من جديدٍ لأدرس فيها جانباً تجديديّاً آخر، ثمّ انتقلت به إلى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ثمّ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وحدها، ثمّ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مرَّة أخرى، ثمّ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، ثمّ إلى ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وهكذا.. وبقدر ما تزداد هذه الملاحقات والتكرار، أو شبه التكرار، للشاهد الواحد؛ يمكن أن نتبيّن مقدار تزاحم الجوانب التجديديّة وتداخلها وشمولها وتغطيتها لأدقّ تفاصيل لغة القرآن الكريم.

وأخيراً، من المهمّ جدّاً لأيّ قارئ لهذا الجزء أن يعود أوّلاً إلى المقدّمة الطويلة التي قدّمنا بها للجزء الأوّل، فهي المفتاح الحقيقيّ للدخول إلى عالم الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن الكريم، والذي فقَدْنا، بل فقد معظم من فاتته معايشة تلك الحقبة الفريدة لتنزّل الوحي، القدرة على تمييزه واكتشافه، وكان ذلك

بسبب أُلفتنا الطويلة له، وولادتنا على تلاوته، ومعايشتنا اليوميّة لكلماته وآياته، فلم نعد نميّز فيه، شأننا مع كلّ معجزات الطبيعة الهائلة والمستمرّة والمتكرّرة من حولنا، تلك الومضة الخاطفة الأولى التي سحرت ألباب من سمعوه لأوّل مرّة.

ولا يعدو عملنا في هذا البحث أن يكون إماطةً لحاجز الأُلفة عن عيوننا وذواكرنا، ومحاولةً للعودة بقوّةِ التصوّر الذهنيّ إلى الحقبة النبويّة الأولى، والقبض على تلك اللحظة الاستثنائيّة البكر، لنكتشف من خلالها تلك الهزّة التي أحسّها العربيّ الأوّل وهو يعايش يوماً بيوم، وعلى مدى ثلاثٍ وعشرين سنة، التجربة الفريدة التي لم ولن تتكرّر بعد ذلك، مستمعاً إلى وحي السماء يُلقى عليه بكرةً وعشيّا، فيتلمّس فيه، بأذنيه ووعيه وحسّه، تلك الأبعاد اللغويّة والبيانيّة والفكريّة الجديدة التي جاءت تخالف كلّ ما عرفه منها حتّى تلك اللحظة، والتي تكفّلت الألفة والتكرار والمعايشة اليوميّة والزمن أن تقتل في نفوسنا الإحساس بها، واستحضار الهزّة الأولى التي ابتعثتها في نفوس أوائل من سمعها من المسلمين في عصر النبوّة.

أحمد بسام ساعي

أوكسفورد في ٠٦/ ٠٤/ ٢٠١٣م

openkan.com